



رُوِيَ عن بعض السلف قوله: «من لم يملك نفسه فليس بأهل أن يملك غيره»، وقال بعض الحكماء: «العاجز من عجز عن سياسة نفسه»، وقال الشاعر:

ابداً بنفسك فأنهما عن غيها  
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم  
فهناك تسمع إن وعظت وينتدى  
بالقول منك، ويُقبل التعليم  
لا تنه عن خلق وتأتي مثله  
عار عليك إذا فعلت عظيم

ويحكون عن عبدالله بن هارون بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أنه لما شاع الفساد في عامة رعيته، شاور نصائحه، فقال بعضهم: الرأي أن تجمع قوماً فتصلبهم، وقال آخرون: بل تعمر بهم السجون. واختلفوا في القول، فقال: ليس الرأي شيئاً مما قلتم، ولكن الرأي أن أبداً فأصلاح نفسي، فإذا صلحت نفسي صلح باطني، وإذا صلح باطني دب الصلاح ونشأ في رعيتي. قالوا: وفتك الله، وعمل بذلك الرأي فرأى الخير عليه.  
وأيًّا ما كان فمقتضى العقل ما جاء به الشرع حيث قال الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتَلَوَنَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤]، ومن المعلوم في شؤون الدنيا أن المشاريع يقل مردودها، ويضعف إنتاجها إذا كان القائمون عليها مفرطين، متواينين، غير متحمسين لها.

وهكذا مشاريع الآخرة، هكذا استصلاح الناس، واستنفاذهم من الوهن.  
والمقصود بهذه الكلمة تذكير إخوتي من الدعاة، وقد قال ربنا: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]، ومنه انتزع بعض العلماء أنه لا غنى للمؤمن وهو مؤمن عن التذكير بما يزيد الإيمان ويبنته، وإلا رجع القهقري، ولهذا فرضت الموعظة على المؤمنين مرة في الأسبوع على الأقل وذلك يوم الجمعة، فلا غنى لكل من يُخال على خير عن التذكير بين فينة وأخرى، وذلك من أسباب ثبات المحسن وزيادة إحسانه، ومراجعة المقصري وتدارك شأنه، وموضوعي «الدعاة والوهن»،

ولفظ الدعاء أشبه بالاصطلاح المعاصر على الهداء معلمي الناس الخير ومذكريهم بالله ورعايته حدوده، من المشايخ وطلاب العلم، وقد يدخل فيهم العلماء، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وأما الوهن في ينبغي أن نقف عنده قليلاً، فهو من حيث الأصل الضعف؛ في العَظُم والبدن، وفي العمل والأمر، فهو ضعف في الحالة النفسية، أو في الحالة البدنية، فهو ضعف حسي، أو ضعف معنوي.

وهو درجات نبه النبي على أدناها وذلك في حديث ثوبان رضي الله عنه الذي رواه أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَغَيْرَهُمَا وَصَحَّهُ جَمِيعُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالَ: «يُوشِكُ الْأَمْمُ أَنْ تَدْعُوا عَلَيْكُمْ كَمَا تَدْعُوا الْأَكْلَةَ إِلَى قَصْعَتِهَا.

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟

قال: بل أنتم يومئذ كثيرون، ولكنكم غثاء كفثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهاة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن.

فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟

قال: حب الدنيا وكراهيَة الموت».

فعلم من هذا الحديث أن من الوهن حب الدنيا وكراهيَة الموت؛ والمقصود الموت في سبيل الله عز وجل حيث شُرعت مظانه كالجهاد في سبيل الله، وكقول كلمة الحق في وجه سلطان جائر إبراء للذمة ونصحاً للأمة متى تحققت شروط ذلك. وإذا كان إيثار الحياة الدنيا أو تقديم كراهيَة الموت على المطلوب الشرعي وهذا، فأشد منه إيثار بعض متع تلك الحياة ونعمها على المطلوب الشرعي، فإيثار المنصب الدنيوي أو الوظيفة أو الجاه أو مصلحةٍ شخصية أخرى على المطلوب الشرعي وهذا أشد من إيثار الحياة أعني: كراهيَة الموت.

ومن هذا تعلم أن الوهن دركات، وإذا لاحظنا ذلك علمنا أن المؤثر في زيادة أمران:

الأول: زيادة الوهن بازدياد إيثار عرض من أعراض الدنيا على المطلوب الشرعي، فكلما قوي حب الدنيا – فالحب درجات – أو قويت كراهيَة فوت العرض الدنيوي كلما زاد الوهن.

الثاني: زيادة الوهن بإيثار ما حقر من الأعراض الدنيوية على المطلوبات الشرعية العظمى، فكلما كان المقدم على المطلوب الشرعي أتفه وأقل شأنًا كان الوهن أشد والداء أعظم، وكلما فات بسبب حب الدنيا مطلوب شرعى عظيم كان الوهن بحسبه عظيمًا.

وإذا نظرنا في واقعنا، وفي إحجام كثير من الناس عن واجب البلاغ، وواجب العمل للدين، وبه، وواجب نصرة إخواننا المستضعفين والمظلومين، وجدنا سببه عند كثير منهم تقديم أعراض دنيوية أقل من القليلة! على المطلوب شرعاً بل على المطلوبات الشرعية العظيمة.

وهذه آفة تعرض لعموم الناس قل أن ينجو منها أحدٌ في مسائل جزئية؛ إما بسبب الاجتهاد أو التأويل المعتبر، أو بالتأويل الذي لا يخلو من هوى أو تقصير، أو بسبب التفريط الظاهر، والمصاب بهذا على سبيل نجاة ما دام يراجع نفسه، ويصحح مساره، ويعود إلى الجادة من جديد، لكنه على خطر متى غداً ذلك العرض وصفاً لازماً، متمكنًا من القلب، فهنا يعود الوهن من كونه جزئياً إلى كونه منهاجاً كلياً.

ومما يتأنول به كثير من الناس، كون التكليف بحسب القدرة، كما قال الله تعالى: **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مُسْعَهَا}** [البقرة: 286]، **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا أَتَاهَا}** [الطلاق: 7]، وهذا حق، غير أن حديث ثوبان فيه إشارة إلى أن تقديم مراد الله على كراهيَة الموت ليس تكليفاً بما لا يطاق، بل هو من في الْوَسْعِ! ولهذا يكون jihad في بعض الأحوال فرضًا مع كونه مظنة ذهاب المهج والنفوس، ويكون الثبات في الصدف فرضًا مع خوف التلف أو الضرر، ولم يكن ذلك عذرًا في الفرار. وإنما الرخصة التي تسوغ القعود حيث يظن حصول الضرر، وفوت المصلحة، فللواحد أن يفر من الثلاثة إن ظن التلف، وله

السکوت عن المنکر إن خاف الضرر ولم ير إنکاره ما يحق حقاً أو يبطل باطلأ.

فمثى كانت المصلحة الشرعية متنافية أو غير متحققة، والضرر متحقق، فهنا المطلوب الشرعي هو زوال الضرر، بخلاف ما لو كانت المصلحة الشرعية متحققة، والأذى أو الضرر الشخصي قد يحصل وقد لا يحصل، فهنا الواجب تقديم المطلوب الشرعي، وحوادث الناس ونوازيلهم بين الأمرين أعني بين ما يجب فيه تقديم المطلوب الشرعي المضمون على خوف الضرر المظنون، وما يجب فيه تقديم منع الضرر المحقق على المطلوب الشرعي المظنون تتحقق، وللإجتهداد في ذلك مجال، ولا يوفق فيه إلا من أخلص واجتهاد في النظر والتخلص من الهوى، ثم اتبع أقوم السبل الممكنة لإقامة الشع، وكذلك للإجتهداد مجال أرحب حيث يكون الضرر متحققاً والمصلحة المأمور بها كذلك متحققة، أو يكون الضرر متنفياً وكذلك المصلحة.

والدعاة بحاجة إلى ضبط المعادلة حتى لا يصابوا بالوهن، وحتى لا ينقطعوا بسبب الحماس الزائد الذي لا يبقي ظهراً فلا يقطع صاحبه أرضاً! حال أنسى كثيـر أرادوا إقامة حكم الله ولا قدرة لهم فكلـفوا أنفسـهم والنـاس ما لا يـطـيقـون فـآلـتـ حالـ بعضـهـمـ إلىـ ماـ نـرـىـ!ـ والمـقصـودـ متـىـ تـحـقـقـ المـطلـوبـ الشـرـعـيـ قـدـمـ عـلـىـ المـصـلـحةـ أـوـ خـوـفـ الـضـرـرـ الشـخـصـيـ،ـ وـمـتـىـ ظـنـ عـدـمـ تـحـقـقـهـ قـدـمـ دـفـعـ الـضـرـرـ،ـ ثـمـ قـدـ يـكـونـ خـوـفـ الـضـرـرـ رـخـصـةـ فـيـ تـرـكـ الـأـمـرـ وـقـدـ لاـ يـكـونـ.

وضبط هذه المعادلة اليوم يفتقر إلى كثير من العلم بالشرع، وال بصيرة في الواقع، افتقاراً يعز في زماننا هذا أن يسدّ شخص بمفرده مهما بلغ، بل لا بد من شراكة، لا بد من تضافر جهود وتشاور عقول، ليكتمل التصور الشرعي، وينزل موضعه الصحيح، ولئن كان العمل الجماعي ضرورة في الأمور الدنيوية المعاصرة فإقامة منشأة محكمة - جسر أو عمارة مثلاً - لا بد من توافر جهود مهندسين معماريـنـ ومـدـنـيـنـ وكـهـرـبـائـينـ معـ إـدـارـيـنـ وـمـحـاسـبـيـنـ وـهـلـمـ جـرـاـ،ـ فـكـذـلـكـ لـإـقـامـةـ دـيـنـ اللهـ نـحـتـاجـ إلىـ تـضـافـرـ جـهـودـ عـلـمـيـةـ وـتـحـلـيلـيـةـ بـعـيـدـةـ النـظـرـ فـيـ الـوـاقـعـ لـنـقـومـ بـالـوـاجـبـ الشـرـعـيـ تـجـاهـهـ.

إن الحملة اليوم على الإسلام الصحيح شديدة، وقد تداعت علينا الأمم، وسبب ذلك منبه عليه منصوص ألا وهو الوهن: حب الدنيا وتعظيمها على إنفاذ أمر الله، ومتى قدم المسلمون - وأخص دعاتهم: علماءهم وطلاب العلم منهم ومشايخهم - حب الدنيا على الجهاد المشروع في سبيل الله تعالى بمفهومه الشرعي العام الشامل للجهاد بالنفس، والمال، واللسان، والقلم، وغير ذلك؛ فيقعد عن قتال الكفار المتعين حبـاـ للـدـنـيـاـ وـكـرـاهـيـةـ لـلـمـوـتـ،ـ أوـ يـقـعـدـ عـنـ دـعـمـ المـجـاهـدـيـنـ بـالـمـالـ،ـ أوـ دـعـمـ مـشـارـيعـ استـصـالـحـ الـأـمـةـ وـمـحـارـبـةـ الـجـهـلـ وـأـهـلـ الـجـهـالـةـ مـنـ الـعـلـمـانـيـنـ وـالـمـنـافـقـيـنـ،ـ أوـ يـقـعـدـ عـنـ جـهـادـ الـقـلـمـ وـقـوـلـ كـلـمـةـ الـحـقـ الـوـاجـبـ بيانـهاـ،ـ تـارـكـاـ وـاجـبـ النـصـحـ مـصـانـعـاـ الـبـاطـلـ وـأـهـلـهـ،ـ متـىـ كـانـ ذـلـكـ فـقـدـ وـقـعـ الـوـهـنـ فـلـاـ غـرـوـ أـنـ يـتـسـلـطـ الـأـعـدـاءـ.

وبعض الناس يحسب أن سبب الوهن تسلط الأعداء وكثريـهمـ،ـ والـصـحـيـحـ أـنـ الـعـدـوـ إـنـماـ يـتـسـلـطـ عـلـىـ منـ أـصـابـهـ الـوـهـنـ،ـ فـهـذـاـ الـذـيـ تـضـعـضـعـتـ نـفـسـهـ،ـ سـهـلـ عـلـىـ عـدـوـ أـنـ يـتـجـاسـرـ عـلـيـهـ،ـ وـعـدـوـنـاـ عـدـوـ دـيـانـةـ مـتـرـبـصـ مـنـ قـدـيمـ،ـ يـحـجمـ إـنـ وـجـدـ فـيـنـاـ قـوـةـ وـجـلـدـاـ،ـ وـيـقـدـمـ إـنـ رـأـيـ وـهـنـاـ وـضـعـفـاـ،ـ فـالـوـهـنـ هـوـ الـذـيـ يـطـمـعـ الـأـعـدـاءـ فـيـنـاـ فـيـتـكـالـيـوـنـ،ـ وـعـنـدـهـاـ يـزـدـادـ وـهـنـ بـعـضـ الـنـفـوـسـ الـتـيـ تـعـبـدـ اللهـ عـلـىـ حـرـفـ،ـ إـنـ أـصـابـهـاـ خـيـرـ اـطـمـأـنـتـ بـهـ،ـ وـإـنـ أـصـابـهـاـ فـتـنـةـ اـنـقـلـبـتـ عـلـىـ وـجـوهـهـاـ،ـ وـارـتـدـتـ عـلـىـ أـدـبـارـهـاـ!

إن واقع كثير من يشار إليـهمـ بـالـبـيـانـ،ـ وـيـظـنـ بـهـمـ الـخـيـرـ وـالـدـيـانـةـ مـؤـسـفـ،ـ لـمـ يـعـدـ الـأـمـرـ عـنـهـمـ مـقـتـرـاـ عـلـىـ مـجـرـ الـضـعـفـ،ـ وـلـاـ التـرـخـصـ الـمـعـتـبـرـ،ـ أـوـ تـرـكـ الـعـزـائـمـ وـمـعـالـيـ الـأـمـورـ،ـ بـلـ صـارـتـ عـلـةـ كـثـيـرـ مـنـهـمـ التـرـخـصـ فـيـ قـوـلـ الـبـاطـلـ،ـ وـالـوـقـوفـ مـعـ أـهـلـهـ،ـ لـاـ فـيـ السـکـوتـ عـنـ الـحـقـ،ـ أـوـ فـيـ تـرـكـ مـنـاـصـرـةـ أـهـلـهـ،ـ وـآفـةـ هـؤـلـاءـ تـجـاـوـزـتـ الـوـهـنـ إـلـىـ مـرـضـ الـقـلـبـ فـكـانـوـهـمـ مـنـ جـمـلـ الـأـعـدـاءـ،ـ وـإـذـ كـانـ إـلـمـ أـحـمـ رـحـمـهـ اللهـ قـدـ هـجـرـ أـقـوـاماـ بـلـ عـدـدـاـ مـنـ الـأـئـمـةـ أـجـابـواـ فـيـ الـمـحـنـةـ مـتـرـخـصـيـنـ،ـ إـذـ لـاـ يـحـسـنـ بـمـثـلـهـمـ أـنـ يـجـيـبـوـاـ حـيـثـ كـانـ إـجـابـهـمـ لـلـنـاسـ فـتـنـةـ إـذـ كـانـ هـذـاـ شـأـنـ إـلـمـ أـحـمـ مـعـ رـجـالـ صـادـقـيـنـ مـرـضـيـيـنـ كـيـحـيـيـ بـنـ مـعـيـنـ وـعـلـيـ بـنـ الـمـدـيـنـيـ وـإـبـرـاهـيـمـ الـحـرـبـيـ وـغـيـرـهـمـ،ـ فـكـيـفـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ الشـأـنـ مـعـ مـنـ وـقـفـ مـعـ الـبـاطـلـ وـسـانـدـهـ وـكـانـ ظـهـيرـاـ لـهـ،ـ قـدـ يـسـعـنـاـ وـأـقـولـ قـدـ -ـ السـکـوتـ عـنـ الـحـقـ،ـ لـكـنـ لـاـ يـسـعـنـاـ الـوـقـوفـ مـعـ الـبـاطـلـ وـمـنـاـصـرـتـهـ،ـ وـمـنـ آـلـتـ بـهـ الـحـالـ إـلـىـ هـذـاـ،ـ وـاسـتـمـرـأـهـ فـقـدـ تـجـاـوـزـتـ عـلـهـ وـهـنـ الـجـسـدـ إـلـىـ مـرـضـ الـقـلـبـ!

ختاماً أعيد ما بدأته.. الدعاء بحاجة إلى أن يبثوا في الأمة هذه المعاني فإن الوهن العام الذي تعيشه الأمة من جملة الأسفاق، وهذا يبشر بأن له دواء، والدعاة المتقون هم أطباؤه:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى  
طبيب يداوي الناس وهو مريض!

ومثل هذا قد ينفع الله به، لكنه لن يكون كالقوى الصحيح سليم القلب والبدن، وقد لا ينفع به بل قد ينقل العدوى، فحرى بالدعاة أن يذكّر أيضًا بعضهم بعضاً بهذه المعاني إذ يقل في المجتمعات من يذكّرهم، فالناس يرونهم قدوة، والله عز وجل يقول: {وَالْعَصْرُ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، ثم قال: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ} [العصر: ۱ - ۳]، جعلني الله وإياكم منهم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مجلة البيان

المصادر: